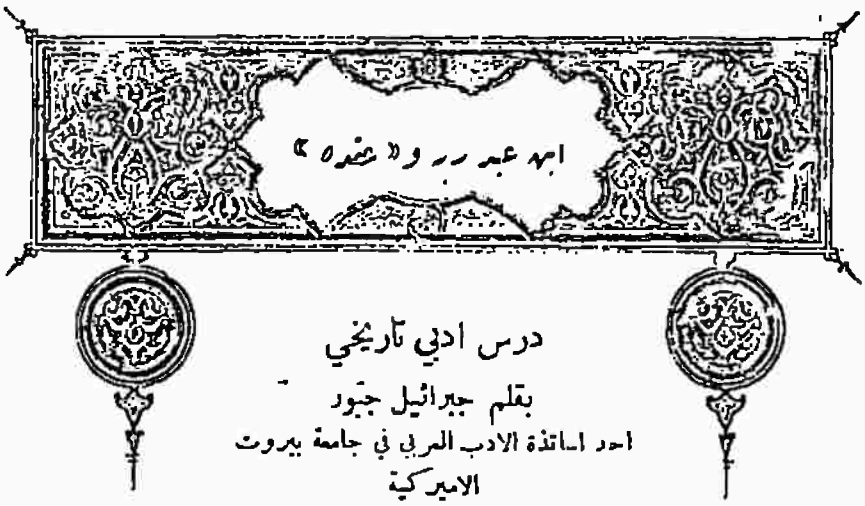

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت
الاميركية

١١

شعره

يقول ابن الفرضي عن ابن عبد ربه «هو شاعر الاندلس واديبها.»[١] ويذكر الفتح بن خاقان ان ابن عبد ربه «حجة الادب، وان له شعراً انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسماه.»[٢] ويزعم علي بن سعيد المغربي صاحب «عنوان المرقصات والمطربات» ان ابن عبد ربه «امام اهل ادب المئة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله.»[٣] ويروي البعض ان المتنبي انشد شعراً لابن عبد ربه فصفق بيديه وقال: «يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً.»[٤]

واخشى ان تكون آراء هؤلاء كلهم قليلة القيمة عندنا. ذلك لاننا اذا قرأنا ترجمة هؤلاء المؤرخين والادباء لغير هذا الشاعر وآراءهم في شعره وتقديرهم لمكانته الفينا ان اكثر الذين تُرجمت حياتهم شعراء كبار، وان كلًّا منهم «شاعر الاندلس واديبها» وان لكلّ منهم شعراً «انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسماه». نعم لقد تعوّد اكثر هؤلاء القدماء ان يصدروا احكامهم

---

١) ابن الفرضي ١ : ٢٧ ٢) ابن خاقان : ٥١

٣) علي بن سعيد المغربي: عنوان المرقصات والمطربات، مصر سنة ١٢٨٦، ص ٥٦

٤) ياقوت ٢ : ٧١ . ويذكر علي بن سعيد المغربي الابيات التي حكم المتنبي بسماعها ان ابن عبد ربه شاعر الاندلس، صفحة ٥٦

ويقطعوا في الامور التي تعرض امامهم ، دون روية واحتياط وايثار للقصد والاعتدال . فيبالغون في مدح المترجم او يسرفون في ذمه [اذا كانت لهم غاية في ذمه] ولا يقضون في حكمهم قضاء نزيهاً بريئاً من اغراضهم الخاصة وتأثراتهم الشخصية ، وقليل جداً من كل هؤلاء من استطاع ان يكون مستقيماً في حكمه ، مقتصداً في رأيه ، يقضي في هذه المسائل الادبية التي تعرض له من تقدير شعر شاعر ، او نثر ناثر ، والحكم على صاحبه قضاء صحيحاً خالياً من الغرض ، بريئاً من الهوى ، طليقاً من قيود العادات والتقاليد حتى يكون لحكمه وزن ولرأيه قيمة . واذن فعندما نرى هؤلاء يتفقون او يكادون يتفقون على ان ابن عبد ربه صاحبنا هو زعيم شعراء الاندلس فيجب ان لا نقنع باحكامهم ولا نتقيد بآرائهم ، اذ كل ما يقولون هو انهم سمعوا الناس تقول هذا ، او ارادوا لغرض في نفوسهم ان يكتبوا هذا ، او انهم ، وهو لارجح ، قد تعودوا ان يقولوا في اكثر الشعراء مثل هذا .

خذ الفتح بن خاقان مثلاً وافتح كتابه عرضاً ، وها انا افتح الكتاب كذلك ، وها امامي صفحة ٣٦ ، وفيها ترجمة فقيه . انظر كيف يبدأها : « اي اشرف لاهل الاندلس ومفخر واي محمد شيد الاسلام وسحر خلدت منه الاندلس فقيهاً عالماً اعاد مجاهل جهلها معالماً » حتى يقول : « سمع بالاندلس وتفقه حتى صار اعلم من بها وافقه » . انتخب موضعاً آخر من الكتاب وهو ذا صفحة ٥٣ تقع تحت نظري وفيها ترجمة فقيه آخر : « امام اللغة والاعراب وكعبة الآداب » . واقرأ في صفحة ٢٨ ترجمته لوزير فقيه : « واحد الاندلس الذي طوقها فخاراً . » او صفحة ٧٤ ، وفيها ترجمة اديب قال عنه : « زهت به الاندلس وتاهت وحاسنت ببدائعه الاشمس وزاهت فحمد المغرب فيه المشرق وغص به من بالعراق وشرق . » او صفحة ٩١ وفيها ترجمة شاعر صدرها بقوله : « رافع اية القريض . » وقريباً من هذا كانت احكام ابن الفرضي وكثيرين غيره ممن تعرضوا لتقدير شعره .

الا انه لم يفت البعض منهم ان يقتصدوا نوعاً ما في مدحهم اياه من هذه الناحية فقد ذكره الضبي فقال فيه ما قاله الحميدي . « من اهل العلم والادب

والشعر كانت له بالعلم جلالة وفي الادب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة.»[1] وذكره ياقوت فاورد رواية «مدح المتنبي له واكتفى بما قاله الحميدي فيه»[2]. وذكره ابن خلكان فاشار الى انه له ديوان شعر جيد[3]. وروى بعض اشعاره الثعالبي وقال عنه «احد محاسن الاندلس علماً وفضلاً وادباً ونبلاً» وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة وعليه رونق البلاغة والطلاوة.[4] والغريب ان هؤلاء الذين اعتدلوا في مدحه، واقتصدوا في نعته، واكتفى بعضهم بقوله انه من اهل الشعر وذكر البعض الآخر ان له شعراً جيداً، لم يشر احد منهم الى موضع الجودة في شعره، ولم يذكر احد منهم من اين كانت له الرياسة والشهرة في الادب، ولم يتصدَّ احد منهم الى نقد آراء الرواة التي نقلوها عنهم في صدد الحكم على هذا الشاعر. وكم كنا نود لو ذكروا لنا اسباب حكمهم او طرق نظرهم، او وصفوا لنا موازين تقديرهم للشعر علّنا نستطيع من هذا كله ان نكتشف ما يسهل علينا ان نحكم على شاعرية ابن عبد ربه حكماً عادلاً مستقيماً بعد ان ضاع اكثر شعره الذي يظهر ان بعضهم رجع اليه. قال ابن خلكان: «وله (اي لابن عبد ربه) ديوان شعر جيد.»[5] وذكر ياقوت، والضبي عن الحميدي، ان شعر ابن عبد ربه مجموع، وان الحميدي رأى منه نيفاً وعشرين جزءاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الله.»[6]

وليس بين ايدينا الآن من هذا الشعر كله سوى الف واربع مئة بيت ونيف[7]. ولربّ معترض يقول ان في هذا القدر من الشعر الكفاية للحكم على صاحبه، ولكننا لا نرى هذا الرأي، ولا نصدر حكماً باتاً على شاعر ما

---

١) الضبي: ١٢٧
٢) ياقوت ٢: ٦٨
٣) ابن خلكان ١: ٤٥
٤) الثعالبي ١: ٤١٢
٥) ابن خلكان ١: ٤٥
٦) ياقوت ٢: ٦٧، والضبي: ١٢٧
٧) لقد عُني السيد شفيع بعدّها، وذكر في مقاله بعجب تامه صفحة ٤١٧، ان العقد يضم منها ١٢٥٠ بيتاً، وان في سائر الكتب ٩٢ بيتاً منها ٢٧ في المطمح، و ١٤ في طبقات الامم، و ٣ في وفيات الاعيان، ونحو ٦٠ في اليتيمة. وظاهر ان السيد شفيع اخطأ في حسابها حيث ان مجموع الارقام الاخيرة يبلغ ١٠٣ لا ٩٢ كما راه. قد اهمل نفح الطيب... للمقري فيه شعر لم يذكر في كتاب آخر.

قبل ان نطلع على ديوانه تاماً او على الاقل على القسم الاكبر من شعره. اذ قد يجوز ان يكون الشعر الذي بين ايدينا مما بقي لهذا الشاعر هو من احسن شعره او من ارذله، وفي كلتا الحالتين لا يمثله تمام التمثيل. زد على ذلك اننا سنضطر ان نسقط من هذا العدد الذي ذكرناه ٤٤٥ بيتاً تألفت منها ارجوزته في غزوات الخليفة الناصر[1]، وقد مرّ معنا انها ليست من الشعر في شيء؛ انما هي تاريخ منظوم. وكذلك سنسقط ايضاً ١٩١ بيتاً تألفت منها ارجوزته في العروض[2]، تلك الارجوزة التي يصدق عليها من حيث القيمة الشعرية ما يصدق على اختها التاريخية. وسنسقط ايضاً ٦٣ بيتاً ذكر ابن عبد ربه انه ضمنها في مقطعاته الغزلية عن ضروب العروض واشار الى انه نقلها عن كتاب الخليل في العروض[3]. فلا يبقى لدينا بعد هذا كله من شعر ابن عبد ربه سوى سبع مئة بيت ونيف. واذن فحكمنا على شاعريته وفنه انما هو يستند الى هذا القدر القليل، وهو اذاً عرضة للخطأ، اذ قد يجوز ان يكون فيما بقي من شعره ما يوصل الى غير هذه النتائج التي سنصل اليها. فلنسجل تحفظنا منذ الآن ونعيد القول ان حكمنا ليس نهائياً ولا باتاً. انما هو قابل «للاستئناف والتمييز». وعسى ان يكون في طيات الكتب الخطية المدفونة ما يجلو غامض هذه الناحية يوماً ما.

وبعد فكنا قد درسنا في حياة ابن عبد ربه شيئاً عن المحيط الذي نشأ فيه، فذكرنا قرطبة وما بانت اليه في ذلك الزمن من الحضارة والرقي، وما كان فيها من ضروب العلم وسبل اللهو، وأشرنا الى ما كان يحيطها من مناظر طبيعية خلابة من جبال غطت مناكبها اشجار الورد الذي كان يرى اصحابه الفضل لمن تقطف يده ما يمنحونه منه، ونهر ينساب في ربوعها وقد قرّب بين ضفتيه الواحد من الآخر وتقطعت غدرُه، وانبسطت على جنباته سروج من الخضرة وبساتين من الفاكهة زادته بهجة ونضارة واكسبته معنى وحلاوة. ونصدينا الى المجتمع الذي عاش فيه والناس الذين احتك بهم وعاشرهم في الحلقات المختلفة من فقهاء وعلماء، وامراء، وخلفاء. والمحنا الى حياة اللهو التي عاشها في

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٣

٢) ابن عبد ربه ٣: ١٩١

٣) ابن عبد ربه ٣: ١٨٨

شبابه ، والطرق التي سلكها في لهوه ، واشرنا الى بعض المحن التي عرضت له ، وتوصلنا الى فهم بعض نزعاته وميوله ، وطبعه ، وخلقه . وللقارئ ان يقدّر تأثير هذه كلها في نفس ابن عبد ربه ، وبالتالي في شعره الذي لم تحفظ لنا الاقدار منه سوى النزر اليسير .

ويتبيّن لنا من هذه الآثار التي بقيت من شعره ان الفنون التي تعرّض لها ابن عبد ربه هي : الهجاء ، والمدح ، والرثاء ، والغزل ، والزهد ، وبالطبع قد تعرّض في سبيل هذه الفنون الى الوصف ، وربما قصر بعض شعره على وصف روضة ما او جنة من تلك الجنات التي عرفت بها قرطبة وما جاورها من بقاع الاندلس ، او على وصف حرب او قتال ، او سيف ، او جواد ، وما الى هذه الامور . اما الموشّحات التي ينسبها اليه البعض فلم نقع على اثر لشيء منها في كل المصادر التي بين ايدينا ، وسنعرض لدرس هذا الامر في آخر البحث .

الهجاء

كان ابن عبد ربه يحبّ الهجاء ، وكان يرغب في الدعابة والفكاهة فيه . ترى ذلك واضحاً في عقده ، في هذه المواضع التي تعرّض فيها بالانتقاد للكثيرين من الذين اخذ عنهم كالمبرّد ، وابن قتيبة ، وسيبويه ، او روى لهم نقلاً عن هؤلاء وغيرهم . ولعلّ القارئ لا يزال يذكر انتقاد ابن عبد ربه للمبرّد في صدد ما جمعه الاخير بكتابه الروضة ، وكيف زعم ان المبرّد كان يخطر بكل الاشعار الجميلة التي لا تغيّر فيتخطّاها الى التي تجانسه في برده ، وقال : « ما احسب خلقه هذا الاسم للمبرّد الا لبرده » ، ولعله لايزال يذكر ايضاً هذه الناحية من خلق ابن عبد ربه التي اشرنا اليها من حيث حبه التعرّض بالغير في شيء من الانتقاد ، وذكره للروايات المختلفة في ما عيب على الشعراء وغيرهم وتدوينه لكثير من الاشعار التي قيلت في هجو الثقلاء . وقد كان لهذه الناحية من خلقه اثر ظاهر في شعره . ويظهر انه وفق الى حدّ ما في فهم الهجاء على الوجه الذي يجب ان يكون عليه من حيث تصوير المساوئ والتعرّض لاصحابها بشيء من الدعابة والفكاهة ؛ حتى اذا سمع الهجو سامع استنكر الهيئة واستظرف

النكتة وضحك مع ناظمها. واليك مثلاً من شعره هذا وقد وقف تحت روشن قصر في قرطبة لبعض الوزراء وكان فيه غناء حسن، فرُشَّ بماء، فاستدعى رقعة وكتب الى صاحب القصر بهذه القطعة:

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ... ما كنت احسب هذا البخل في احد!
لو ان اسماع اهل الارض قاطبةً ... أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد!
فلا تضنّ على سمعي، تقلّده ... صوتاً يجول مجال الروح في الجسد.
اما النبيذ فاني لست اشربه، ... ولست آتيك الا كسرتي بيدي.

وقال يهجو بخيلاً:

لا يفطر الصائم من اكله، ... لكنه صوم لمن افطرا
في وجهه من لؤمه شاهد ... يكفي به الشاهد ان يخبرا
لم يعرف المعروف افعاله ... قط، كما لم تنكر المنكرا (١)

وقال يهجو آخر:

ما بال بابك محروساً بوّاب ... يحجبه من طارق يأتي ومنتاب؟
لا يحتجب وجهك المعروف عن احد، ... فالمقت يحجبه من غير حجّاب؛
فاعزل عن الباب من قد ظلّ يحجبه ... فان وجهك طلسم على الباب. (٢)

وذكر في عقده انه قصد شخصاً ورجاه وامله فلما اعتاه شيئاً انما كتب اليه بعدة في صحيفة ومطله بها، فقال فيه:

صحيفةٌ افنيت بيضا وعمى ... عنوانها راحة الراجي اذا يئسا.
وعد له هاجس في الغدر قد برمت ... احشاء صدري به من طول ما انغمسا.
مواعد غرّني منها وميضُ سنا ... حتى مددت اليها الكفّ مقتبسا.
فاصبحت حجراً لو كنت تضربه، ... من لؤمه، بعصا موسى لما انبجسا.
كأنما صيغ من بخل ومن كذب ... فكان ذاك له روحاً، وذا جسدا.

وقال فيه ايضاً:

صحيفة طابعها اللؤم، ... عنوانها بالجهل مختومُ
اهدى لها، والمتلف في طيها، ... والمطل والتسويف واللومُ،
من وجهه غسٌّ، ومن قربه ... رجسٌ، ومن عرفانه شومُ.
لا تغتضم، ان بتّ ضيفاً له، ... فخبزه في الجوف هاضومُ.
تكلمه الالحاظ من رقة، ... فهو بلحظ العين مكلومُ

(١) ابن عبد ربه ٣: ٢٢٠
(٢) » » » ١: ٢٠٠

لا تأتدم شيئاً على أكله ، فانه بالجوع مأدومُ . (١

وذكر ابن صاعد الاندلسي في طبقات الامم انه كان لابن عبد ربه ابن اخ اسمه سعيد . وكان طبياً وشاعراً فاقتصد يوماً وبعث الى عمه راغباً اليه في ان يحضر عنده مؤانساً له ، فلم يجبه عمه الى ذلك رابطاً عنه فكتب سعيد الى عمه :

لما عدمت مؤانساً وجليسا ، نادمت بقراطاً وجالينوسا ؛
وجعلت كتبهما شفاء تفرّدي ، وهما الشفاء لكل جرح بوسا .
ووجدت علمهما ، اذا حصلته ، يذكي ويبقي للجسوم نفوسا .

فجاوبه ابن عبد ربه احمد :

القيت بقراطا وجالينوسا لا يأكلان ، ويرزآن جليسا ،
فجعلتهم دون الاقارب جنّة ، ورضيت منهم صاحباً وانيسا .
واظن بخلك لا يرى لك تاركاً حتى تنادم بعدهم ابليسا . (٢

وترى في ردّ ابن عبد ربه ميله الى النكتة في الهجاء ، ومداعبته الشديدة الوطأة لابن اخيه ، ناسباً اليه البخل وزاعماً له ان ذاك سيجرّه الى منادمة ابليس .

وكان يجنح ابن عبد ربه في بعض الاحيان الى النكتة اللاذعة يصوغها بشيء من بذيء اللفظ او يديرها على شيء من سافل المعنى . فقد جرت بينه وبين ابي محمد القلفاط الشاعر مشادّة وخصام أثارها القلفاط اذ دعا ابن عبد ربه بلقبه (طلاس) ، فاقذع له ابن عبد ربه بالجواب . ثم صنع القلفاط قصيدة في هجو ابن عبد ربه ، وتهاجيا . ثم التقيا مرةً عند بعض الوزراء ، فسأل عن حاليهما فانشد القلفاط بيتاً هجا فيه ابن عبد ربه . غير انه ما كاد يكمله حتى بادره ابن عبد ربه ببيت صبّ فيه جام نقمته عليه فاقذع اشدّ اقذاع ، والقم القلفاط حجراً ، فانقطع خجلاً . ومع ان البيت غاية في الفحش معنى وتعبيراً فانه مثال قوّي لقوة النكتة وبراعة صاحبها في ايرادها . وقد ذكره المقّري على عجره وبجره شاهداً على سرعة جواب اهل الاندلس(٣) .

١) ابن عبد ربه ١ : ٩٤
٢) ابن صاعد : ٧٩ ، وابن ابي اصيبعة ٢ : ٤٤
٣) المقري ٢ : ٨٣٢ ، وج ١١ : ٣٠٠ من طبعة اوربة

ومع ان وستنفلد (Wüstenfeld) [1] يرى ان ابن عبد ربه يمتاز بالهجاء، فانا لا نرى له شعرًا كثيرًا في هذا الفن يحق ان تذكر له فيه هذه الميزة بارزة قوية، غير ناسين اننا لاحظنا في خلقه ميلًا للتعرض بالغير بشيء من الهجو او الانتقاد.

وكان يخلط هجاءه في بعض الاحيان بشيء من التذمر من الزمن الذي عاش فيه. وبذلك تراه شاكيًا مثلما تراه هاجيًا. وتراه متبرمًا متذمرًا، كما تراه متهجمًا مظهرًا نقائص خصمه وعيوبه. واليك قوله في بعضهم:

رجاء دون اقربه السحابُ، ووعد مثل ما لمع السراب،
ودهر سادت البلدان فيه وعاثت في جوانبه الدئابُ،
وايام خلت من كل خير، ودنيا قد تدرعها الكلابُ
كلاب لو سألتهم ترابًا، لقالوا عندنا انقطع التراب[2]

وقوله، وقد سأل بعض موالي السلطان اطلاق محبوس فتلكأ فيه:

حاشا لمثلك ان يملك اسيرا! او ان يكون من الزمان مجيرا!
لبست قوافي الشعر منك مدارعًا سودًا، وملت اوجهًا وصدورا.
هلّا عطفت برحمة لما دعت ويلًا عليك مداعي، وثبورا!
لو ان لؤمك عاد جودًا عشره ما كان عندك حاتم مذكورا.[3]

واليك قوله شاكيًا الشيب والحكام:

جار المشيب على رأسي فنبره، لما رآني عند الحكام قد جاروا[4]

ويتبين من هذا كله ان ما بين ايدينا من شعر ابن عبد ربه في الهجاء قليل لا يحق لنا ان نطلق منه حكمًا على صاحبه. واننا نرى من هذا القليل ان ابن عبد ربه قد فهم شيئًا من روح الفن الهجائي من حيث حبه للفكاهة والدعابة في اظهار نقيصة الخصم. غير انه كان يجنح في بعض الاحيان الى الدعابة اللاذعة التي يشوبها الاقذاع. وسنعرض لديباجة شعره بوجه عام في غير هذا الموضع.

---

١) Wüstenfeld صفحة ٥٣ رقم ١٠٧

٢) ابن عبد ربه ١: ٣٤٠ ٣) ابن عبد ربه ١: ١٠٧

٤) » » ١: ٢١٩

المدح

ويصدق على شعر ابن عبد ربه في المدح من حيث قلّته وحكمنا عليه ما يصدق على شعره في الهجو. غير اننا نرى في هذه الاشعار القليلة قوة في المعاني، مع طلاوة ورقة تبعثها عاطفة صادقة في كثير من الاحيان. دخل على القائد ابي العباس فانشده:

الله جرّد للندى والباس سيفًا، فقلّده ابا العبّاس.
ملك، اذا استقبلت غرّة وجهه قبض الرجاء اليك روحَ اليائس،
وبه عليك من الحياء سكينةٌ وعبيرة تجري مع الانفاس.
واذا احبّ الله يومًا عبده القى عليه محبةً للناس! (١

وروى في عقده انه سأله حاجة فيها بعض الغلظ فتلكأ عليه فاخذ سعاة من بين يديه، فوقع فيها على البديهة:

ما ضرّ عندك حاجتي؟ ما ضرّها؟ عذرًا اذا اعطيت نفسك قدرها!
انظر الى عرض البلاد وطولها او لست اكرم اهلها وابرّها!
حاشا لجودك ان يوعّر حاجتي! ثقتي بجودك سهّلت لي وعرها.
لا يجتني حلو المحامد ماجدٌ حتى يذوق من المطالب مرّها.

فقضى حاجته وسارع اليها(٢). ومدح احدهم فقال:

كريم على الملّات، جزلٌ عطاؤه، يُنيل، وان لم يبتسد لنوالِ.
وما الجود من يعطي اذا ما سألته ولكن من يعطي بغير سؤال. (٣

ومدح بعضهم لتواضعه فقال:

فتى زاده عزُّ المهابة ذلّةً، فكل عزيز عنده متواضعُ (٤

ومدح آخر لهيبته فقال:

يا من يجرّد من بصيرته، تحت الحوادث، صارمَ العزمِ،
رعت العدوّ فما مثلت له الا تفزّع منك في الحلم.
اضحى لك التدبير مطردًا مثل اطراد الفعل للاسم.

١) ابن عبد ربه ١: ١٠١
٢) ابن عبد ربه ١: ١٠١
٣) » » ١: ٨٨
٤) ابن عبد ربه ١: ١٥

رفع المسود اليك ناظره فراك مطلعاً مع النجم. (١

ومدح آخر باستسهال اللفظ وحسن الكلام فقال :

قول كأن فرنده شحذ على ذهن اللبيب.
لا يشتر على اللسا نِ، ولا يشذ على القلوب.
لم يتل في شنع اللغا تِ، ولا يوحش بالغريب.
سيف تقلّده مثله عطف القضيب على القضيب.
هذا تجذ به الرقا ب، وذا تجذ به القلوب. (٢

ومدح بعضهم فقارن بين خلائقه وبين زهر الروض، قال :

وما روضة بالحزن حاك لها الندى برودًا من الموشي حمرّ الشقائق،
يقيم الدجى اعناقها، ويميلها شعاع الضحى المتنّ في كل شارق،
اذا ضاحكتها الشمس تبكي بابتٍ بكللة الاجفان صفر الحالق،
حكت ارضها لون السماء، وزانها نجوم كامثال النجوم الخوافق،
باطيب نشرًا من خلائقه التي لها خضعت في الحسن زهر الحلائق. (٣

وكان يشوب شعره في المدح في بعض الاحيان شيء من المبالغة، شأن اكثر الشعراء في عصره. وقد مدح الخليفة عبد الرحمن الناصر باشعار كثيرة فيما يقول جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى اتهمت وانجدت واعرقت[٤]. غير انه يسكت عن ذكر اكثرها ويكتفي بتدوين بعضها في عقده. ومن هذا القليل قوله من قصيدة :

يا ابن الخلائف، ان المزن لو علمت نداك، ما كان منها الماء ثجّاجا.
والحرب، لو علمت بأسًا تصول به، ما هيجت من جبال الدين اهياجا.

الى ان يقول :

ادخلت في قبّة الاسلام مارقة اخرجتها من ديار الشرك اخراجا،
يحفل تشرق الارض الفضاء به كالبحر يقذف بالامواج امواجا،
يقوده البدر يسري في كواكبه عرمرمًا كسواد الليل رجراجا؛
تروق فيه بروق الموت لامعة، ويسمعون به للرعد اهزاجا.
غادرت في غمرتي جيّان ملحمة ابكيت منها بارض الشرك اعلاجا.
في نصف شهر تركت الارض ساكنة، من بعد ما كان فيها الطير قد ماجا،

(١ ابن عبد ربه ١: ١٦
(٢ ابن عبد ربه ١: ٢٠٠
(٣ » » ٣: ١٨٧
(٤ ابن عبد ربه ٢: ٢٦٣

وجدت في المخبر المأثور منصلتاً ... من الخلائف خرّاجا وولّاجا ،
فلا يك الارض عدلاً ، مثل ما ملئت ... جوراً ، وتوضح للمعروف منهاجا .
يا بدر طلعتها ، يا شمس صبحتها ، ... يا ليث حومتها ، ان هائج هاجا ،
ان الخلافة لن ترضى ، ولا رضيت ، ... حتى عقدت لها في رأسك التاجا .(١

اما مديحه للخليفة الناصر هذا ، الذي تركه لنا في ارجوزته التاريخية الحاوية ذكر الغزوات التي قام بها الخليفة المذكور ، فليس من مستوى هذه الابيات التي ذكرنا ، ولا ترى فيه قوة العاطفة او الخيال كما تراهما في غيره :

اقول في ايام خير الناس ، ... ومن تحلّى بالندى واليأس ،
ونحن في حنادس كالليل ، ... وفتنة مثل زهاء السيل ،
حتى تولى عابد الرحمن ، ... ذاك الاغر من بني مروان ،
خليفة الله الذي اصطفاه ... على جميع الخلق ، واجتباه
من معدن الوحي وبيت الحكمة ، ... وخير منسوب الى امّة
تكلّ عن معروفه الجنائب ، ... وتستحي من جوده السحائب .
في وجهه من نوره برهانُ ، ... وكفّه لعقله قربان .
احيا الذي مات من المكارم ... من عهد كعب ، وزمان حاتم ،
مكارم يقصر عنها الوصفُ ، ... وغرة يحسر عنها الطرفُ ،
وشيمة كالعباب ، او كالماء ، ... وهمة ترقى الى السماء .
وانظر الى البديع من بيانه ... يريك بدعاً من عظيم شانه .
لو كابل البحر ندى يديه ، ... اذ لجأت عفاته اليه ،
لفاض ، او لكاد ان يفيضا . ... ولاستحى من بعد ان يفيضا .
من اسبغ النعمى ، وكانت محقا ، ... ورتق الدنيا ، وكانت فتقا .
هو الذي جمع شمل الامه ، ... وجاب عنها داسات الظلمه ،
وجدّد الملك الذي قد اخلقا ، ... حتى رست اوتاده واستوثقا .(٢

ولعلّ هذه الابيات خير ابيات في المدح في ارجوزته . فاننا اذا تجاوزناها الى قلب الارجوزة نرى التكلف في المدح ، وضعف العاطفة والخيال والمعاني :

وبعدها غزاة ثنتي عشره ... وكم بها من خبرة وعبره !
غزا الامام ، حوله كتائبُ ، ... كالبدر محفوفاً به الكواكب ،
غزا ، وسيف النصر في يمينه ، ... وطالع السعد على جبينه ،

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٣-٢٦٤
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٤

الى ان يقول :

فاجتمعت عليه كل الامه ، وبايعته امراء الفتنه . (١

والذي اراه ، وذكرته في غير هذا الموضع ، ان الارجوزة على وجه عام نظمٌ اكثر منها شعرًا . ولابن عبد ربه غير الارجوزة ، وغير الشعر الذي ذكرنا ، مدحٌ في الخليفة الناصر وغيره يخالطه وصف دقيق للحرب ربما اتينا على ذكر بعضه في بحثنا عن الوصف في شعر ابن عبد ربه .

الزهد

اما شعره في الزهد فقد كان اكثره متكلفاً . ويكفي ان تعلم انه كان في زهده يعارض نفسه في غزله . فيأخذ قصيدته في الغزل ، وينقضها بأخرى في الزهد على نفس الوزن والقافية حدث في شبابه انه كان له محبوب عزم على الرحيل في غد يوم ، فاستولى الحزن على الشاعر . ولما اصبح اتت السماء بمطر جود حال دون السفر ، فكتب ابن عبد ربه :

هلّا ابتكرت لبين انت مبتكرُ ! هيهات يأبى عليك اللهُ والقدرُ !
لا زلت ابكي حذارَ البين ، ملتهباً حتى رثى لي فيك الروحُ والمطرُ .
يا برده من حيا مزن على كبدي ! تبرأ منها بغليل الشوق تستعرُ .
أكيت الا ارى شيئاً ، ولا قمرًا ، حتى اراك ، فانت الشمس والقمرُ . (٢

كان هذا في صباه . فلما زهد في كبره عمد الى هذه الاشعار فنحصها باخرى في الزهد ومحّص ابياته هذه بقوله :

يا قادرًا ليس يعفو حين يقتدر ، ماذا الذي بعد شيب الراس تنتظر ؟
عاينْ بقلبك ان الدين غافلة عن الحقيقة ، واعلم انما سفر ،
سوداء ترفر من غيظ ، اذا سفرت للظالمين ، فلا تبقي ولا تذر .
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر !
انت المنول له ما قلت مبتدئاً : هلّا ابتكرتَ لبين انت مبتكر (٣

ويظهر التكلف في شعره في الزهد ، عندما يعمد الى كلام بعض الذين

(١ ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٣ (٢ الضبي : ١٢٨

(٣ ابن خاقان : ٥٣ اما الضبي : ١٢٩ فيروي « يا عاجزًا » . . . ولا تقضي له من عيشه وطرُ . ويذكر بدل ترفر في البيت الثالث تسفر .

سبقوه من الائمة او الفقهاء فينظمه شعراً قال: «قال الحسن:

«ابن آدم لست بسابق أجلك ولا ببالغ املك ولا مغلوب على رزقك ولا مرزوق ما ليس لك فعلام تقتل نفسك»، اخذت هذا المعنى فنظمته في شعري فقلت:

لست بفاضٍ املي، ولا بمعادٍ اجلي،
ولا بمغلوب على (م) رزق الذي قُدّر لي،
ولا بمعطٍ رزق غيرٍ (م) ري بالشقا والعمل،
فليت شعري ما الذي ادخلني في شغلي!»[1]

ولعلّ ابن عبد ربه قد تأثر بابي العتاهية في زهده. وقد شابهه بالرجوع عن حياة اللهو الى الزهد، او ان شئت فقل شابهه بالرجوع عن شعر في اللهو الى شعر في الزهد، وما اكثر ما يستشهد باشعار ابي العتاهية في العقد في مواضيع الزهد، وما اكثر ما يردفها بابيات له في الموضوع نفسه فيذمّ الدنيا والزمان الذي عاش فيه، كما كان يذم ابو العتاهية دنياه وزمانه، ويذكر الموت ويدعو الى الالتفات الى الحياة الآخرة، كما كان يفعل ابو العتاهية. وأخشى ان المقام لا يتسع لذكر هذه الاشعار وما يقابلها من شعر ابي العتاهية. ولكن من الخير ان ترجع الى بعضها في العقد[2].

ومن دعوة ابن عبد ربه الى ذم الدنيا والزهد فيها قوله:

الا انما الدنيا بضارة ايكةٍ اذا اخضرّ منها جانب ... جف جانب.
هي الدار، ما الآمال الا فجائع عليها، ولا اللذات الا مصائب.
فكم سخنت بالامس عين قريرة! وقرت عيون دمعها اليوم ساكب!
فلا تكتحل عيناك فيها بغمرةٍ على ذاهب منها، ولست بذاهب[3]

ولم يكن كل شعر ابن عبد ربه في الزهد متكلفاً. بل كان منه ما يمثل عاطفة رجل تائب نادم. وكان منه ما حرض نفسه فيه على التوبة الخالصة، مذكراً اياها بوعد الله، ومهدداً اياها بدنوّ الموت. قال:

بادر الى التوبة الخلصاء مبتدئاً والموت، ويحك، قد عدا اليك بدا.

---

١) ابن عبد ربه ١: ٢٨٨

٢) » » ١: ٢٤٠، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٨٠

٣) » » ١: ٢٧٣. اما التالي ١: ٢٦٣ فيورد «عين» و«عيون» في البيت الثالث منصوبتين على التمييز: «وخضارة» في البيت بدل «خضرة»

وارقب من الله وعدًا ليس يخلفه ، لا بدّ لله من انجاز ما وعدا ! (١

وقال ايضاً :

يا ويلتا من موقف ما به أخوف من ان يعدل الحاكمُ !
ابارز الله بعصيانه ، وليس لي من دونه راحمُ ،
يا ربّ ، غفرانك عن مذنب أسرف ، الا انه نادمُ ! (٢

وله في البكاء من خوف العقاب :

مدامع قد خدّدت في الخدود ، وأعين مكحولة بالجمود ،
ومعشر اوعدهم ربهم فبادروا خشية ذاك الوعيد ،
فهم عكوف في محاريبهم يبكون من خوف عقاب المجيد ،
قد كاد ان يشب من دمعهم ما قابلت اعينُهم في السجود . (٣

وقال ايضاً مذكرًا نفسه بقرب الاجل ، وناهياً اياها عن سبل الضلال :

اتلهو بين باطلة وزير ، وانت من الهلاك على شفير ؟
فيا من غرّه امل طويل يؤديه الى اجل قصير ،
افرحُ ، والمنيّة كل يوم تريك مكان قبرك في القبور ؟
هي الدنيا ، فان سرتك يومًا ، فان الحزن عاقبة السرور .
ستسلب كل ما جمعت منها كعارية ترد الى المعير ،
وتنتاض اليقين من الظنون ، ودار الحق من دار الغرور . (٤

الغزل

واذا تركنا هذه الفنون الى الغزل نرى ان ابن عبد ربه قد ضرب فيه بسهم كبير ، واكثر شعره المتحدّر الينا في يتيمة الثعالبي وفي العقد يدور على الغزل . ويظهر ان اكثر التقريظ الذي ناله ابن عبد ربه من القدماء انما كان لشعره في الغزل . وقد كانت الابيات التي روى الرواة انها اطربت المتنبي حتى صفق بيديه واستعادها من راويها وقال : « يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبوًا » في باب الغزل الذي لم يطرقه المتنبي نفسه كثيرًا :

يا لؤلؤا يسبي العقول انيقا ، ورشا بتقطيع القلوب رفيقا ،
ما ان رأيت ، ولا سمعت بمثله درًّا يعود من الحياء عتيقا .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٧ وقابله ايضاً بابيات ابي العتاهية (ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠)
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٦ ٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٤
٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠

واذا نظرتَ الى محاسن وجهه ابصرت وجهك في سناه غريقا ،
يا من تقطع خصره من رقة ، ما بال قلبك لا يكون رقيقا . ؟

واكثر شعره الذي يذكره له مترجموه انما هو في الغزل . فقد نقل ابن خلكان بعض المقاطيع من شعره اكثرها في الغزل ، وما نقله ابن خاقان اكثره في الغزل . ولعلّ تقريظه له بقوله عنه «ان له شعرًا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسماه» كان لشعره في الغزل حيث انه يستشهد بعد تقريظه هذا بأبيات في الغزل[٢] .

واذا درسنا هذا الشعر الغزلي الذي بقي وتحدّر الينا عنه نرى انه لم يخل في كثير من المواضع من التكلف الذي صبغ به بعض شعره في الزهد والمدح . ذلك ان اكثر المقطوعات الغزلية التي بين ايدينا قد نظمت فيما يظهر لغاية علمية لا تعبّر عن عقيدة صادقة او عاطفة صحيحة . فالقسم الاول من المقطوعات (وهو نحو ٣٠٠ بيت) قد نظم ليكون مثالًا على ضروب العروض المختلفة ، وقد ضمّنت كل قطعة منها بيتاً قديماً من الابيات التي استشهد بها الخليل في عروضه[٣] . وقيد ابن عبد ربه نفسه في ان ينظم كل مقطوعة على بحر البيت الذي استشهد به الخليل وقافيته ، وان تكون المقطوعة متضمنة للبيت ومتصلة به وداخلةً في معناه[٤] . وليس هذا بالقيد اليسير . وكذلك قل في القسم الثاني من المقطوعات (ويضم نحو ٢٠٠ بيت) فان ابن عبد ربه قد وضع اجزاءه على تأليف حروف الهجاء ، فأتى بالمقطوعة الاولى على قافية الهمزة ، وبالثانية على الباء ، وبالثالثة على التاء وهلم جرًّا . وفي هذا من التقيد ما به . زد على هذا كله ان عدد الابيات في كل مقطوعة معيّن لا يمكن تجاوزه . فهو خمسة في القسم الاول آخرها البيت المضمّن ، واربعة في القسم الثاني . وكل هذه قيود فوق قيود . والذي يظهر لنا ان ابن عبد ربه قد قصد الى الغزل في هذه المقطوعات لغاية علمية صرّح بها وهي ان يكون حفظها سهلًا على السنة الرواة[٥] . وهاك بعض نماذج منها :

---

١) ابن خاقان : ٥٣ ، وياقوت ٢ : ٦٧ ٢) ابن خاقان ٥١-٥٣
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨ ٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨ ٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨

الخفيف: العروض التام – الضرب التام الجائز فيه التشعيث:

انت دائي ، وفي يديك دوائي ... يا شفائي من الجوى ، وبلائي ،
ان قلبي بحبّ من لا اسمّي ... في عناء ، اعظم به من عناء!
كيف لا ؟ كيف أن الذ بعيش ؟ ... مات صبري به ، ومات عزائي .
ايها اللائمون ، ماذا عليكم ... ان تعيشوا ، وان اموت بدائي ؟
« ليس من مات فاستراح بميت ... انما الميت ميّت الاحياء » (١

شطر الخفيف: العروض المجزوء الضرب:

ما لليلى تبدلت ، بعدنا ودّ غيرنا ،
ارهقتنا ملامة ، بعد ايضاح عذرنا .
قلونا عن ذكرها ، وتلّت عن ذكرنا .
لم تقل ، اذ تغيرت واستهلت بهجرنا ،
« ليت شعري ماذا ترى ... ام عمرو في امرنا » (٢

شطر المقتضب: له عروض واحد مجزوء مطوي وضرب مثل عروضه وهو:

يا مليحة الدعج ، هل لديك من فرج ؟
ام تراك قاتلي بالدلال والنتج ؟
من لحسن وجهك من سوء ذلك السمج ؟
عاذليّ ، حبكما ! قد غرقت في لجج .
« هل عليّ ، ويحكما ان لهوت من حرج » (٣

مقطعات على تأليف حروف الهجاء ، وضروب العروض الاول من الطويل سالم:

وازهر كالنيروز يسمى بزعراء ... لنا منها دالة ، وبرئ من الداء .
الا بابي صدغ حكى العين عطفه ، ... وشارب مسك قد حكى عطفة الراء .
فما السحر ما يزوى الى ارض بابل ، ... ولكن فتور اللحظ من طرف حوراء .
وكفّ ادارت مذهب اللون اصفرا ... مذهبة في راحة الكف صفراء

الضرب الثاني من الطويل مقبوض:

معذبي رفقاً بقلب معذّب ، ... وان كان يرضيك العذابُ ، فعذّبي !
لعمري ، لقد باعدت غير مباعد ، ... كما انني قربت غير مقرّب .
بنفسي مدرٌ اخذ البدر نوره ، ... وشمس متى تبدو الى الشمس تغرب ،
لو ان امرأ القيس بن حجر بدت له ... لما قال : « مرّا بي على ام جندب » .

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢١٢
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢١٤
٣) » » ٣ : ٢١٥

الضرب الثالث من الطويل المحذوف المعتمد :

عجب طوى كشحًا على الزفرات ، وانسان عين خاض في غمرات ،
فيا من بعينيه سقامي وصحتي ، ومن في يديه ميتتي وحياتي ،
بعينك عاشرت الهموم صبابةً ، كافي لها ترب ، وهنّ لداتي .
فخذني ارض للدموع ، ومقلتي سماء لها تهلّ بالعبرات . (١)

وترى اثرًا آخر للتكلف في شعره الغزلي في غير هذه المقطوعات نتج عن تحديه لبعض شعراء المشرق ومحاولته تقليدهم او معارضتهم في بعض الاحيان . منه ما يتعلق باستعماله بعض انواع البديع على طريقة ابي تمام ومسلم بن الوليد اللذين اكثر من رواية شعرهما في عقده . ومنه ما يتعلق بتضمينه بعض التعابير او استعارته بعض المعاني المألوفة عن هذين الشاعرين وغيرهما . غير انه كان في طبيعته فيما يظهر ، وفي بيئته الخاصة ومحيطه العام ، ما جعله يختلف عن هؤلاء من نواحٍ كثيرة . بل انه كان في معارضته بعضهم يخرج عن التقليد . فلقد اورد اشعارًا في رقة التشبيب لشعراء من المشرق منهم العباس بن الاحنف ، وجميل بن معمر ، وعمر بن ابي ربيعة ، وقال عن بعضها انها من الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ويؤدي عن الضمير ابانةً . ثم ذكر في آخر هذا الباب اشعارًا له صدرها بقوله : «ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره» ويظهر من هذه الاشعار معان جديدة ليست حقًا دون ما نقل لهؤلاء الشعراء منها :

صحا القلب الا خطرة تبعث الأسى لها زفرة موصولة بحنين .
بلى ربما حلّت عرى عزماته سوالفُ آرام ، واعين عين ،
لواقط حبّات القلوب ، اذا رنت بسحر عيون وانكسار جفون .
وربط من الوشي ابنع تحته غدائر صدور لا غدائر غصون .
برودٌ كانوار الربيع لبسنها ثياب قصاب لا ثياب مجون ،
قرنّ ادم الليل عن نور اوجه فجئن بها الالباب كلّ جنون ،
وجوه جرى فيها النعيم ، فكللت بورد خدود يجتنى وشيون .
سالبس للايام دوعًا من الاسى ، وان لم يكن عند اللقا بعيني .
فكيف ، ولي قلب اذا هبت الصبا اهبّ بشوق في الضلوع دفين !

(١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٤ و٢٢٥ ، وليلاحظ انا اوردنا ٣ مقطوعات على الاحرف الثلاثة الاول متتابعة

وجناح منه كل ما كان ساكنًا دعاء حمام لم يبت بوكون .
وان ارتياحي من بكاء حمامة كذي شجن داوبته بشجون .
كأن حمام الايك ، حين تجاوبت ، حزين بكى من رحمة لحزين (١

ويصدق على لاميته التي عارض بها صريع الغواني (مسلم بن الوليد) ما صدق على قصيدته هذه قال : ومما عارضت به صريع الغواني في قوله :

ادبرا على الراح ، لا تشربا قبلي ، ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي .
فيا حزني اني اموت صبابة ، ولكن على من لا يحلّ له قتلي .
فديتُ التي صدت وقالت لقربها : دعيه ، الثريا منه اقرب من وصلي .

فقلت على رويه :

اتقتلني ظلمًا ، وتجحدني قتلي ، وقد قام من عينيك لي شاهدا عدلِ ؟
اطلّاب ذحلي ، ليس لي غيرُ شادنٍ بعينيه سحرٌ ، فاطلبوا عنده ذحلي .
اغار على قلبي ، فلما اتيته أطالبه فيه ، اغار على عقلي .
بنفسي التي ضنّت بردّ سلامها ، ولو سألت قتلي وهبتُ لها قتلي .
اذا جئتها ، صدّت حياءً بوجهها ، فيعجبني هجر الذّ من الوصل .
وان حكمت ، جارت عليّ بحكمها ولكن ذاك الجور اشهى من العدل .
كتمت الهوى جهدي ، فجرّده الاسى بماء البكا : هذا يخطّ ، وذا يملي .
واحببت فيها العذل حبًّا لذكرها ، فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل .
اقول لقلبي ، كلما ضامه الاسى : اذا ما أبيت العز فاصبر على الذلّ !
برايك ، لا رأيي ، تعرّضتَ للهوى ، وامرك ، لا امري ، وفعلك ، لا فعلي .
وجدت الهوى حبلًا من الموت منسدًّا ، فجرّدته ، ثم اتكيت على النصل .
فان تك مقتولًا ، على غير ريبة ، فانت الذي عرضت نفسك للقتل . (٢

وقد اعجب ابن عبد ربه في قصيدته هذه ايضًا حتى انه قال :

« فمن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضل شعر صريع عنده الّا بفضل التقدم ولاسيما اذا قرن قوله في هذا الشعر :

كتمت الذي القى من الحب عاذلي ، فلم يدر ما بي ، فاسترحت من العذل .

بقوله في هذا الشعر :

واحببت فيها العذل حبًّا لذكرها ، فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل . (٣

(١ ابن عبد ربه ٣ : ١٧٤ ، والثعالبي ١ : ٣٦٢

(٢ ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥ ولقد اورد الثعالبي هذه الابيات في يتيمته (١ : ٤٢٠) اذ انها كثر فيها التصحيف والتحريف فترى « دخلي » في موضع « ذحلي » (ثاري) — و«البلا» بدل « البكا » — و«اشفى» بدل « اشهى » — غير اننا آثرنا نقل « فيعجبني هجر » في البيت الخامس عن اليتيمة ، وهي في العقد فتهجرني هجرًا . ٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥ (له تابع)